

## مهاجرو وادي سوف والثورة الجزائرية في الحوض المنجمي التونسي (منجم الرديف نموذجاً)

أ.السعيد قعر المثرّد- جامعة الوادي



### ملخص :

لم تكن الجالية الجزائرية المهاجرة الى منطقة الحوض المنجمي بالجنوب الغربي التونسي مجرد جالية استوطنت هرباً من ظروف الإستعمار فقط، بل كانت جالية نشيطة استطاعت أن تؤسس أحياء كبرى على شكل قرى حول المناجم حملت إسمها ، في بلدات هذا الحوض وتفاعلت اقتصادياً واجتماعياً : خاصة منجم الرديف الحدودي الذي اتخذته رجال الثورة مع أصيلي سوف هناك ليكون حاضنة للتحصير لثورة التحرير الكبرى حتى أصبح محطة هامة لها : إن على الصعيد التعبوي السياسي أو العسكري، وسنطرح في مداخلتنا دور مهاجري وادي سوف في تمويل وتموين وإمداد الثورة بالرجال في منجم الرديف وتفاعلهم معها.. وما عاناه هؤلاء من جراء ذلك.

### Resumé :

La communauté algérienne emmigrée au bassin minier au sud ouest de la Tunisie n'était pas des celles qui avaient fui les circonstances coloniales ;mais c'était une communauté active qui avait fondé des énormes cités prenant l'evergure des villages qui avaient pris son nom autour des mines de phosphate.La dite communauté avait su s'adapter socialement et économiquement avec la société autochtone ,surtout au mine frontalier de Redeyef qui était un bastion de résistance depuis la préparation jusqu'à ce qu'elle fut un centre important militaire et logistique pour la révolution de libération .Dans notre intervention, nous allons évoquer le role de la communauté émmigré dans le financement et le ravitaillement ainsi que son renforcement en hommes..tout en passant par les contraintes subit par celle ci au temps de la grande révolution.

### مقدّمة :

يعتبر إقليم وادي سوف من الأقاليم المتميزة بظروفها الطبيعية الصعبة سواء على صعيد سطح الأرض الذي تميّزه الكثبان الرملية المتحرّكة أو على صعيد المناخ الذي يطبعه التطرف صيفا وشتاء.. ناهيك عن خلوّه من المجاري و المسطّحات المائية بحيث كان على السكان حفر آبار مختلفة العمق ليتزوّدوا بالماء الشروب وسقي زراعتهم المعاشية ..بينما ابتدعوا زراعة النخيل على مستوى الطبقة الفريانية (البلي) بعد حفر غيطان وتحويل الرمل على كواهلهم أو مستعينين بالدّواب كالبيغال والأحمرّة .واستمرّت هذه العملية لأجيال متعاقبة عانت مع هذه الظروف الصعبة المضنية، ولكنها مع ذلك استطاعت تأسيس قرى عديدة حول المدينة الأم : وادي سوف ، ليتوسّع الإقليم في الإتجاهات الأربعة ويمتد في العرق الشرقي الكبير إذ تحدّه

منطقة الجريد التونسي شرقا , ووحدات غدامس الليبية جنوبا و وادي ريغ غربا , وشط ملغيغ فالزيبان وجبال النمامشة شمالا.

حين حلت الإدارة الإستعمارية الفرنسية منذ 1854 طبعت المنطقة ظروف إدارية وسياسية وعسكرية و اقتصادية ساهمت في حركة السكان إلى خارج الإقليم خاصة بعد تواجد الإيطاليين في ليبيا وامتداد الحرب العالمية الأولى. وسنتناول عرضنا هذا والموسوم ب: " مهاجرو وادي سوف ودورهم الإقتصادي و الإجتماعي في الحوض المنجمي بتونس في النصف الأول من القرن العشرين ( منجم الرديف نموذجاً ) في النقاط التالية :

- ✓ الظروف هجرة بعض سكان وادي سوف لى الهجرة في ظل الإدارة الإستعماري
- ✓ المجتمع الجزائري- السوفي- في منجم الرديف .
- ✓ نتائج الهجرة السوفية للحوض المنجمي عموما والرديف خصوصا.
- ✓ الطالب العربي .

**1- ظروف هجرة سكان وادي سوف في ظل الإدارة الإستعمارية :** إذا كانت الظروف الطبيعية لى قساوتها وشحها لم تشكل دافعا للهجرة عند السوافة لأنهم ألفوا موطنهم وتعايشوا مع ظروفه المضنية بل واستطاعوا فيه اكتساب رزقهم من استغلال الأرض ومواردها القليلة , إلا أن الظروف التي ارتبطت بالتزايد وشح الموارد المتوفرة وكذا الظروف الناجمة عن الإحتلال منقمع تضيق وتضييق , أجبرت بعضهم على الهجرة بحثا عن فضاءات تسمح لهم بعيش أكثر كرامة دون أن ينسوا وطنهم الأم .

**أ- الظروف الاقتصادية :** أدى وقوع وادي سوف تحت سلطة الإحتلال الفرنسي إلى تراجع الموارد الإقتصادية لساكنتها فقد استغلت الإدارة الاستعمارية قدرات الإقتصاد المحلي لصالحها فاحتكرت الزراعات التي كانت تشكل موارد مالية للفلاحين ولم تسعى لإقامة مشاريع من شأنها المساهمة في تنمية ظروف معيشة السكان (1) ..

وقد ازداد تدهور الأوضاع من جراء الإضطرابات البيئية وخاصة فترات الجفاف التي عرفها الإقليم بين (1939الى 1947) إذ أصاب المراعي القحط فهلكت آلاف الرؤوس من الماشية (2) وتراجع انتاج التمور والتبغ اللذان كانا من المكونات الأساسية لتجارة السوافة مع تونس وخدامس والأوراس النمامشة وانحسرت بذلك تجارة القوافل التي تعتمد على الإبل أمام منافسة وسائل النقل الحديثة كالشاحنات والقطار الذي بدأ تشغيله سنة 1946.

وقد نتج عن كل ذلك تدهور في مناصب الإسترزاق واضطر الكثير من الرعاة إلى مغادرة مهنتهم والعديد من أصحاب الإبل الى بيع دوابهم والفلاحين الى ترك زراعتهم وخاصة أولئك الذين كانوا يزرعون التبغ نظرا لمنافسته من التبغ التونسي وتشديد الرقابة الجمركية واحتكار الإدارة الإستعمارية لتجارته التي أسست جمعية الأهالي التعاونية سنة 1936 وأجبرت

الفلاحين على بيع منتوجهم لها ومن لم يمتثل يتعوّض للعقوبة وحتى السجن (3) كما تأثرت تجارة الحبوب التي كانت تتم بالمقايضة بالتمر مع الأوراس النماشية . وقد خُفّ كل ذلك ومع ظروف الحرب العالمية الثانية وقلة الصيانة لوسائل النقل غلاء كبيرا في أسعار المواد الأساسية وبات الكساد يتهدد البلاد لقلة الدخل السكان . وقد احتكرت الشركات الفرنسية تجارة التمور و حتى زراعتها الواسعة ولا تزال مزرعة المعمر شيكا وهو يهودي فرنسي تحمل اسمه الى اليوم كما كان المعمر (بَو) PAO، كان يحتكر شراء التمور وتصديرها نحو أوروبا وقد ضايق الشيخ عبد العزيز الشريف وأبعده عن تجارته وهو الذي كان يُدعى بملك التمور (6) ناهيك عن الضرائب المجحفة التي كان يدفعها الفلاحون للإدارة الفرنسية .

**ب- الظروف الاجتماعية :** لقد استقر كثير من النازحين المُعتمدين حول مدينة الوادي وعاشوا في ظروف مزرية ولم يكن سكان القرى بأحسن حال فعانى الناس الخصاصة من جزاء الفقر المدقع ، وعرفت وادي سوف مجاعة 1937-1938 فكان للزوايا وأهلها الميسورين دور في التخفيف من معاناة السكان فكان الشيخ عبد العزيز الشريف ابن الزاوية القادرية في منطقة عميش، جنوب الوادي، يتصدّق على الفقراء، ومما يُذكر له، أنه ذبح مرة جملين اثنين وتصدّق بلحمهما مع أرغفة الخبز (4) . ومع نزوح البدو واستقرارهم حول المدينة الأم في سوف، تزايد عدد السكان حتى بلغ 100 ألف نسمة سنة 1954 وذلك رغم الأمراض والأوبئة ونقص الغذاء ولكن هذه الزيادة تعود الى إرادة السكان في تعويض ما اختطفته الأوبئة والأمراض كالتييفوس الذي أودى بحياة العشرات يوميا ، خاصة خلال الحرب العالمية الثانية (5) ومن الأمراض التي أرقت أهالي سوف الرمد الحبيبي الذي اضطر الكثيرين الى السفر للعلاج بتونس ومن ثم الاستقرار فيها لطول فترة العلاج واستحسانهم ظروف العيش هناك و لم يكن مستشفى الوادي يتّسع لأكثر من 46 سريرا سنة 1954.

**ج- الظروف السياسية العسكرية :** نظرا لموقعها المحاذي لكل من تونس وليبيا، فإن الإدارة الإستعمارية جعلت من سوف منطقة عسكرية وفرضت على مشائخ الزوايا السماح بتجنيد شبابها في سلك الصبايحية (7) وتأسست حامية من المجنّدين من الوادي وورقلة منذ ديسمبر 1914 للتصدي لتسلّل القوات الإيطالية التي تبحث عن التوسّع في الصحراء وكذلك للمجاهدين الليبيين من الحركة السنوسية على حد سواء . وكانت المنطقة قد صُنّفت كمقاطعة تحت الحكم العسكري منذ 14 أوت 1905.

ومع صدور قانون في 1912 الذي اتبعه مرسوم 1917 للتجنيد الإجباري للزج بالجزائريين في أتون الحرب الكبرى أو تعويض المجنّدين الفرنسيين في المصانع ، انتفض السوافة في ما يعرف بـ(هذّة عميش) الأولى اذ انطلق الأهالي من عميش جنوب الوادي ليلة 15 نوفمبر 1918 مسلّحين بالهراوات وبعض البنادق وتجمهروا بمحاذاة رئيس الملحقة (بُوَاز) . الذي استتجد

بالشيخ الهاشمي الشريف لتهدئة المنتفضين ولكن الإدارة الاستعمارية اعتقلته لشكها في أنه الداعي لهذا التمرد، هو وعدد من أتباعه الذين خضعوا للسجن والتعذيب لعدة شهور (8). وبعد صدور مرسوم مراقبة التعليم في المدارس الحرة والشؤون الدينية للأهالي بتاريخ 26 مارس 1938 عمّ الإستيلاء وادي سوف وقراها وبلغ ذروته بين 12 و15 أفريل من نفس السنة وتجمّع الأهالي من أغلب قرى سوف في الساحة أمام الملحقة العسكرية وتمّ تقديم مطالب من طرف الشيخ عبد العزيز الشريف بن الهاشمي لممثل الإدارة الفرنسية الذي كان في زيارة للمنطقة وقد عرفت هذه الإنتفاضة بـ(هدّة) عمّيش الثانية.. وما كان من السلطات العسكرية إلا أن شنّت حملة اعتقالات واسعة طالّت الشيخ عبد العزيز وكبار العلماء المؤطرين للحركة الإصلاحية بسوف وزجت بهم في سجن الكدية بقسطينة وتمّ نفي الشيخ من سوف نهائيا الى تونس العاصمة سنة 1953. وبعد هذه الهدّة الثورية هاجر الكثيرون من أبناء سوف الى تونس.

لقد شكلت كل هذه الظروف مجتمعة دوافع قوية للهجرة لدى مجموعات واسعة من سكان وادي سوف فشدوا الرحال للهجرة الداخلية والخارجية ومنها الهجرة إلى البلاد التونسية وخصوصا نحو قرى الحوض المنجمي. وقد هاجر هؤلاء وهم يحملون الوطن في وجدانهم وظلّوا متمسكين بأرضهم حالمين بالعودة إليها .

## 2 - المجتمع الجزائري-السوفي- في منجم الرديف :

إن هجرة السوافة إلى الأراضي التونسية قديمة إذ تعود الى القرن التاسع عشر، فقد بلغوا سنة 1868 ما يفوق 2000 نسمة وهو عدد كبير جدا إذ يمثل عشر سكان سُوَف في ذلك الوقت ، وكانت وجهة هذه الهجرة نحو قطبين رئيسيين هما : تونس العاصمة شمالا والحوض المنجمي جنوبا ، لما فيهما من فرص للعمل والكسب . (9) .

لقد استقطبت مناجم الفسفاط في جنوب غربي تونس شبابا من مختلف بلدان المغرب العربي فكان هناك الليبيون والجزائريون والمغاربة .ناهيك عن التونسيين من السكان المحليين . ولقد شكّل هؤلاء نموذجا مغاربيا تعايش في إطار أخوة مغاربية في ظل الهيمنة الإستعمارية . لقد ارتفع عدد العمال الجزائريين السوافة في الحوض المنجمي بقراه الأربع (المتلوي والرديف وأم العرائس و المظليّة) الى 1204 عاملا في سنة 1922(10). ولكن العدد الأكبر من مهاجري سوف عاش في منجم الرديف .

### أولا - منجم الرديف :

يعود الفضل في اكتشاف فوسفات الحوض المنجمي الى البيطري الفرنسي وهاوي البحث الجيولوجي فيليب طوما Philippe THOMAS باكتشافه منجم المتلوي سنة 1885 . وقد شرّع في استغلاله سنة 1899. بينما شرّع في استغلال منجم الرديف سنة 1908(11)

وتقع الرديف في ولاية قفصة بأقصى غرب الحوض المنجمي التونسي على الحدود مع الجزائر وبالضبط مع مدينة بئر العاتر بولاية تبسة . "و كان هذا المنجم يعرف ببئر كنفوس أو (بئر خنفوس) وتأكّدت التسمية عند اكتشاف الفوسفات في المنطقة . ولا تزال الذاكرة الشعبية تحتفظ بأغنية تراثية ذات دلالة تاريخية تقول : "بئر خنفوس وحجيراتو ,جاتو النصرى و ملكاتو .." وقد أطلق على المنطقة اسم الرديف تيمنا بالولي الصالح سيدي الرديف و يقع مزاره خارج القرية أما الرأي الأرجح .. هو أن المنطقة موجودة بين جبلين كبيرين مترادفين ومن خلال لفظة ترادف جاء أصل التسمية الرديف" (12).

تتميز الرديف كمنطقة سهبية بتضاريس متباينة بين الانبساط والإرتفاع وهي ذات مناخ شبه صحراوي جاف اذ لا تتعدى كمية التساقط 135 ملم سنويا مع حرارة تصل صيفا الى 39 درجة .. أما الغطاء النباتي فهو ضعيف ولا يسمع بامتهان الرعي على نطاق واسع إذ أن المنطقة ليست للرعي بقدر ما هي منطقة عبور لجبال النمامشة , ولكن اكتشاف الفوسفات واستغلاله جعل منها تجمعا سكانيا دائما. (13) وتلتقي في الرديف عروش أصولها تتحدر من قبيلتي أولاد سيدي عبيد وقبيلة الهمامة -أولاد بويحيى(14)

بنيت بلدة الرديف في منخفض به واد كرية الجاف والذي يفيض أحيانا في الفصل المطير وحول البلدة تبدأ التضاريس في الإرتفاع لتترك المجال للمناجم المحيطة : فالى الجنوب والجنوب الشرقي نجد منجم الشوابين , والى الغرب والجنوب الغربي نجد منجم زمرة والى الشمال الغربي نجد منجمي برشيم الجنوبي والشمالى (15) وتمتد البلدة في أقصى اتساع لها بين حيي أولاد بو يحيى في الشمال الشرقي و حي أولاد سيدي عبيد بالجنوب الغربي . والى الجنوب من أولاد بو يحيى , يوجد مصنع تجفيف الفوسفات بمدخنته المرتفعة ويليه الحي الأوروبي على مساحة 24 هكتارا يسكنه 660أوروبيا ويتشكل من سكنات فردية فاخرة وذات طابق أرضي تحيطها حدائق بشوارع واسعة .

وتتنصب المقتصدية ( CANTINE), وهي مغازة عصرية كبيرة, قرب هذا الحي بالإضافة الى الكنيسة والحمام والنادي الأوروبي ( messe) وقاعة الحفلات والسنما والمكتبة .(16) ولقد كان مجرّد دخول هذا الحي والمرور في شوارعه يشكّل نزهة فائقة لمختلف الأهالي من الجنسيات المغاربية القاطنة بالرديف (17) والتي وقفت على البذخ الذي ينعم به المجتل وأبناؤه مقارنة بالمعيشة الطنكى التي تسود معظم الأحياء الأهلية هناك.

وبينما يقع الحي الأوروبي شمال مجرى واد دكرية ,فإن الحيين الشعبيين حي الطرابلسية وحي السّوافة بنزلتيه (السّفلى والفلاّقة) يقعان جنوب مجرى الواد بينما يقع السوق بكل مكوناته في مركز البلدة , غير أن ادارة شركة فسفاط قفصة, التي تتولى استغلال المنجم, كانت قد بنت حيا للعمال السوافة شمال الواد في الجهة الغربية كان العمّال العزّاب يسكنون فيه جماعيا , كما

بنت حيا اخر للعمال أصيلي الجريد بينما كان حي المغاربة الصغير يقع شمال مجرى الواد (18). ويحاذيه ملعب كرة القدم هذا الملعب الذي سيكون محتشدا للجزائريين من الرجال.

### ثانيا : السوافة في الرديف وبوادر الوعي التحرري:

السكن: ظهر حي السوافة بالرديف بعد إندلاع الحرب العالمية الأولى 1915 أي بعد حي الطرابلسية واكتمل تشكله سنة 1925 وتعتبر الرديف من أهم المراكز المنجمية التي استقطبت نسبة هامة من السوافة الذين ينقسم حيهم إلى : الفلاّقة والنزلة السفلى(19).

وحي السوافة عبارة عن مجموعة متراسة من المنازل ذات الطابق الوحيد أخذت طابعا متمزا إن أذ أنها كثيرا ما تفتح على بعضها البعض للعلاقات الحميمة والقربى التي تربط السوافة ببعضهم, وقد شكّل الحي وحدة إجتماعية مغلقة حافظت على عاداتها وتقاليدها(20) فحتى شكل البناء الذي كان غالبا من الطين والحجارة الملبسة بالجير المخلط بالرمل,أخذ شكل القباب في كثير من المنازل كما أخذت شكل القباب المستطيلة -الدمسة- وهي سقف بشكل دائري ومستطيل يعتمد علي قطع من السكة الحديدية (21) وقد بلغ عدد منازل نزلة السوافة منذ بداية نشأته 480 منزلا(22) وكان الماء يجلب من عيون جماعية قليلة توجد في الحي وفرتها الإدارة الإستعمارية في الحي الكبير.

ولقد بنت إدارة المنجم مع بداية استغلال الفوسفات حيا اشتهرت منازلها بالضيق والبؤس لإيواء العمال العزاب شمال شرقي واد كرية يدعي بحي القرابة

- ظروف الحياة المنجمية بالرديف و الإحتكاك بالإدارة الإستعمارية: كانت ظروف العمل مضنية وبأئسة لعمال المنجم الذين يقومون بإستخراج الفوسفاط, في أنفاق تكاد تتعدم فيها التهوية نظرا للرطوبة والغازات المنبعثة منه , وكذا تتعدم الانارة الكافية إن يستعمل العمال مصابيح الكربون (lampe à carbure), أما مساحة العمل فهي رواق عرضه متران ونصف وارتفاعه متران وتمتد فيه السكة الحديدية لتحمل العربات التي يملأ العمال منها 75 وحدة أي حوالي 700 كلف من الفوسفات (23) .

وتتمثل الأدوات في الرفش والمعول وتمنحهما الشركة وتقتطع ثمنها من أجر العامل ,ويقوم العمل على المناوبة الصارمة إذ يتناوب العمال في ثلاثة أوقات علي العمل : بريميل -فترة الصباح-من السادسة صباحا حتى الثانية زوالا,ودوزيام-فترة المساء-من الثانية حتى العاشرة ليلا, وطروازيام : ليلا حتى السادسة صباحا(24)

لقد خلقت الظروف المضنية للعمل المنجمي حوادث مؤلمة وقد اثبتت إحصائيات 1955 أن عدد الحوادث بلغ 2600 حادث شغل متنوع وخلفت أربع حالات وفاة (25).

وكان العامل الذي يصاب في حادث عمل داخل المنجم لا يُسرح من العمل أو يحال على الراحة مع تلقي نسبة عجز مناسبة إلا إذا أصيب بإعاقة تامة , ويحوّل الضحية للعمل خارج النفق في تجفيف الفوسفات تحت الظروف المناخية القاسية من حر الصيف إلى قر الشتاء , أو يوضع للحراسة أو العمل لدى المسؤولين الأوربيين في البستنة (26). ولم يسلم العمال مع ظروفهم المضنية من العقوبات الصارمة عن أي تصرف يصدر عنهم كسرقة قطع الخشب التي تسقط من استحكامات المنجم وأخذها للتدفئة أو إتلاف بعض العتاد حتى عن طريق الخطأ أو التهاون في ملء نصيبهم الكبير من العربات بالفوسفات أو غياب مفاجئ غير مبرر أو التناول على رؤساء العمل الأوربيين , وتكون العقوبة بالخصم وقد يُخصم نصفه أو كله أحيانا . ولا تكاد تخلو بطاقة أي عامل من عقوبة ما , أسبوعية كانت أم شهرية (27) .

كانت العلاقات بين العمال المغاربيين ومسؤوليهم الأوربيين علاقة العبد بالسيد فالأوروبي يأمر والعامل المغاربي , ينفذ . أما خارج إوقات العمل فلا علاقة تربط العمال بالأوربيين المسؤولين , فهؤلاء يعيشون في عزلة تامة ويستمتعون بكل أسباب الراحة داخل فللهم المحاطة بالحدائق , ولهم متجرهم الكبير (الكنطينة) التي تحفل بما لذ وطاب من الغذاء الرفيع والملبس والخمر المتنوعة , ولهم ناديهم الخاص , وقاعاتهم للحفلات والسينما وكنيستهم ومكتبتهم وملعبهم للتنس . أما العمال المغاربة ومنهم مهاجرو سوف , فكان يجمعهم كل شيء: ظروف العمل القاهرة في أنفاق المناجم والشاحنات المعدلة كحافلات لنقلهم من وإلى العمل , ويجمعهم السوق والمقهى ويجمعهم خاصة , المسجد في الصلاة والأعياد الدينية وإن تفرقت الأحياء بتشجيع من السلطات الفرنسية وتواطئ مع إدارة المنجم لمنع إتحاد العمال ولحمتهم . وكان هؤلاء على مختلف جنسياتهم يتوقفون عن العمل عند إصابة أحدهم ويهرعون لإسعافه . وعند وفاة أحدهم يتبرع العمال بمبلغ يعادل 300 مليم ولمدة ثلاثة أشهر لصالح الأرملة وأبنائها (28) وهكذا كانت لخدمة العمال المغاربة ومنهم الجزائريون أصيلو سوف تجمعهم في السراء والضراء ولم يكن لجشع الإستغلال الرأسمالي الأوروبي لينال من تضامن المغاربيين مع بعضهم ومهدّ هذا لظهور الوعي العمّالي وبروز النقابة العمالية مبكرا إذ كان أول إضراب شهده منجم الرديف في 17 ماي 1910 بسبب رفض معاملات إطار التسيير وانخرط العمال في النقابة وشاركوا في كل الإضرابات التي كانت مدرسة في الوطنية والتحرر وبعض المستعمر المتعالي الظالم (29).

لقد أسهم مهاجرو سوف وخاصة في منجم الرديف الذين يمثلون أكثر من ربع عمّاله , ساهموا في الحياة الإجتماعية واندمجوا في إطار المجتمع المغاربي الوليد ولم يكتفوا بالسعي وراء الرزق فقط بل شاركوا اخوانهم نبض الحياة وذلك باستخضار أهلهم و ادخال أبنائهم

المدارس المتوقّرة آنذاك بل وهناك منهم من تزوّج أو زوّج ابنة أو إيتنا من أهل البلاد .وقد ساعد هؤلاء قرب موطنهم من الحوض المنجمي و كانت بلاد الجريد محطة عبور لهم نحو هذا الحوض الذي أَلْفوه حتّى مع صعوبة اكتساب الرزق فيه ..وكيف لهم أن لا يألّفوه وقد فرّوا من الخصاصة وبطش المستعمر والتضييق على الحرّيات وانسداد الأفق ؟ وكيف لهم أن لا يألّفوه وقد وفرّ لهم العيش الكريم وتأمين الدخل القار والدائم (30) .

لقد انخرط بعض المتنوّرين من أبناء سوف في الحياة الإجتماعية والثقافية على شحّها واندمجوا في الفعاليات الجموعية الثقافية لمنجم الرديف فمن ضمن مجموعة من الشباب الجزائري السوفي ها هو أحمد بن العايش الزبيدي الذي كان شابا يافعا حافظا لجزء من القرآن الكريم وعاملا في المنجم استطاع الإنخراط في الكشافة التونسية منذ أواخر الأربعينيات وكان شغوفا ولوعا بهذا النشاط الذي شكّل مدرسة في الوطنية والقومية و قد استطاع مع اقرانه أن يكتسبوا خبرة مكّنتهم من تأسيس فرع للكشافة الإسلامية الجزائرية بعد تأسيسها . وأصبح قائدها ومدربها طوال الثورة حتى الإستقلال. وقد كان للكشافة هذه أن اطّرت العديد من شباب الجالية الجزائرية من أبناء سوف وهم الأغلبية وأبناء النمامشة وكان عددهم قليلا يتناسب مع تعداد أسرهم وقد شكّل هؤلاء ذخرا لثورة التحرير الكبرى موردا بشريا مهيا للمشاركة في العمل الثوري (31).

وكان من عادة الشباب الخروج للجبال القريبة للنزهة والإحتطاب عند فصل الربيع. وكان لذلك أن عزّف الشباب واليافعين من السوافة تسلّق الجبال والخوض المسالك وأكسبهم ذلك تحديبا ومراسا على حياة الجبل مما أهل الكثير منهم أن يكونوا في عداد المجاهدين الذين التحقوا بمراكز التدريب بتأطير من جبهة التحرير الوطني (32). كما كان الأطفال يؤمّون الكتاتيب والمدارس القرآنية حتى أنهم كانوا يجذّون السهولة التامة في استيعاب اللغة والمواد التعليمية وكان أغلبهم من المتفوزين دراسيا لأن الواحد منهم لا يدخل المدرسة الآ وفي ذاكرته حزين اثنين من القرآن الكريم على الأقل , (33)

وكان من ضمن أهم المدارس القرآنية في حي السوافة الكبير: مدرسة الطالب محمد الصالح مؤان, ومدرسة الطالب عمارة بن الميعادي ومدرسة الطالب محمّد بقّاص وابنه عبد الرزاق من بعده ..(34). وقد التحق الشيخ الحسين حمّادي بالرديف متطوّعا لتحفيظ القرآن بعد أن نفتته السلطات الإستعمارية منذ منتصف 1957 من وادي سوف نظرا لنشاطه الإصلاحى التنويري السياسى.واسهم هو وابنه الأمين في تحفيظ القرآن وقد كان أخوه الشيخ ابراهيم بن حمادي من أبرز أعيان الجالية السوفية في الرديف ولم يكن سبب لجوء الشيخ الحسين ليُخفى عن الجالية السوفية هناك وشكل ذلك بَعْضا للاستعمار الذي نكّل برجال



الإصلاح والوطنية وطاردهم من وطنهم كما تسبب من قبل في هجرة الآلاف من بني جلدتهم جزاء الفقر والخصاصة والإضطهاد (35).

و قد ظهرت المدارس الحرة ذات المناهج الحديثة قبيل اندلاع الثورة واستمرت بعده مثل مدرسة عبد الباقي خلوط و تدرّس اللغة العربية و موادّها، و مدرسة الحفاوي التي تدرّس باللغة الفرنسية .و تشتغلان بانتظام وتقدّمان دروسا خارج المناهج الرسمية في المدارس الحكومية، وساعدفي ذلك انتظام دخل الأسرة من جزاء العمل في المناجم (36).

ولم تكن الأفكار الإصلاحية والوطنية بمعزل عن هذا التعليم فقد كانت كل من هذه الكتاتيب والمدارس نواة هيئات عشرات الإطارات للثورة والوطن بعدالإستقلال فالتحق العديد منهم بصفوف الثورة كما أن كثيرا من كبار المثقفين في وادي سوف من مبدعين ورجال تربية وموظفين هم نتاج القرى المنجمية عامة والرديف خاصة (37)

كما كان للمرأة نصيبها من التعليم عند السوافة في المناجم وكانت البنات تُزف من القرى المنجمية للزواج في سُوّف، وكان لهذا التعليم أن طوّر من مستوى الوعي الأسري في شؤون الحياة المختلفة وقد تأثر المجتمع السوفي بمكتسبات المهاجرين السوافة للقرى المنجمية في شؤون المجتمع والأسرة وانعكس ذلك إيجابيا على المجتمع (39) وكان لوعي الأم كبير الأثر في تنشأة الأبناء على التعلّق بأرض الوطن. وكانت بعض النساء من انخرطن في العمل النضالي بالإهتمام بملابس المجاهدين غسّيلا وحيّاة .

هذا عن دور السوافة الاجتماعي، أمّا دورهم الإقتصادي فكان كبيرا جدّا . وكان هؤلاء يؤمنون بأن سوف في إقتصادها المحلي ترتكز على ثلاث خشبات هي النخلة ، وخشبة آلة النسيج ،والخطارة (40) وكانت هذه الثلاثية هي التي استند عليها تعمير وادي سوف منذ نشأتها خاصة تمورها ومنسوجاتها الصوفية والتي كانت موضوع مقايضة مع النمامشة والأوراس و غدامس بلبيا . ومن الطبيعي أن تكون زراعة النخيل هي التي أخذت حصة الأسد لأن تمورها من النوع الجيد الذي يطول حفظه نظرا لأنه مغروس بطريقة البعلي ولا يتعرّض للخمج (41) .

وبعد أن استقر السوافة في مواطن هجرتهم وانخرطوا في العمل المنجمي، كان لبعضهم أنشطة موازية سواء في الرديف أو غيرها من المناجم .كما انخرط بعضهم في مهن حرّة كالتجارة والنجارة .وكان بحي السوافة الكبير سوق يسمّى سوق العصر يزداد نشاطه بعد عصر كل يوم وهو عبارة عن شارع متّسع يتوسّط النزلتين السفلى والفلّاقة وبه محلات تجارية من جهة واحدة بينما تُعرض الخضر والفواكه في الجهة المقابلة ، كما كان بعضهم جزّارا يذبح الخرفان و الماعز عند المواسم الدينية وعشية كل سبت ليبيع لحمها يوم الأحد . ومن أكبر المحلات التجارية التي عرفها حي السوافة الكبير بالرديف متجر الأخوين المقراني حسين

ومحمد وهما جزائريان ينحدران من برج بوعريريج. وهناك من التجار من استطاع فرض نفسه في التجارة ونافس أهل البلد أنفسهم في سوقهم بوسط الرديف مثل أسرة كساب التي اشتهرت بإسم "البنزرتي" ، وفي الحي أيضا مخبزتان تكفيانه من مادة الخبز هما: كوشة الضيف تواتي وكوشة لمحيدي كما كان من بين الحرفيين النجار والحداد والحلاق وقد أسهد التجار والحرفيون في دعم الثورة خاصة وأن الرديف كانت على اتصال بأوراس النمامشة حسب موقها الجغرافي (42).

ولم يتخل مهاجرو سوف عن شغفهم بالأرض والزراعة، فهناك من استصلح محيطا صغيرا في أطراف الحي بمحاذاة الواد مثل جنان مسعود غريسي. (43). وكان السوافة يجمعون المال طوال السنة ويقتطعون من أجورهم التي كانت نصف شهرية ، حتى يوقروا مبالغ يدخرونها للعودة . كل ذلك من أجل غراسة مزيد من النخيل في غيطانهم وتعهّد النخل المغروس سابقا ، لأن امتلاك ثروة من النخيل تشكّل المقياس الحقيقي في التصنيف القيمي للرجولة باعتبارها المصدر الرئيسي لمعيشة السكان (44)

لقد كان للدور الإقتصادي في المناجم ومنها منجم الرديف بالغ الأثر في الاقتصاد المحلي بسوف رغم أن غراسة النخيل هناك تُعدّ من أصعب الزراعات لأن على الفلاح أن يحفر الأرض ويرقّع رملها لسنوات عديدة حتى يتمكّن من غرس بعض النخلات بطريقة البعلي (أي أن النخلة لا تسقى وإنما تأخذ نصيبها من الماء عند الطبقة الفريائية) ويتيح هذا النظام للفلاحين امتهان مهن أخرى كالرعي أو التجارة أو حتى الهجرة ، ويضيف إليها عددا قليلا من النخل على مرّ السنين. ومع الغراسة يتعهّدها برفع الرمل من حولها ويتكفل بهذه المهمة عمال يحملونها على ظهور البغال أو الأحمره ويحاربون تراكمها بالزروب المشكّلة من جريد النخل الجاف.. وهكذا تطور عدد النخيل في سوف ليقف فوق 500 ألف نخلة سنة 1953 (45)

غير أن الإهتمام بالنخيل ومحاولة تأمين مستقبل الأبناء وحلم العودة عند العمال المهاجرين لم يُنسهم واجبههم المقدّس نحو ثورتهم التي باركوها ودعموها يشريا بدفع أبنائهم للإلتحاق بها، وماليا بدفع اشتراكات شهرية للمساهمة في تمويلها وهكذا ارتبط العمل المنجمي لدى السوافة بحلم العودة الى أرض الوطن وهو الحلم الذي لم يفارقهم.

**3- نتائج الهجرة السوفية للحوض المنجمي عموما ومساهمتها في ثورة التحرير:**  
إن التراكم الرأسمالي الناجم عن الهجرة على بساطته، قد شكّل في المناجم أو في سوف نفسها رصيذا للتنمية هنا وهناك، كما تلاحمت مكونات المجتمع الجزائري السوفي في المناجم وأكبرها منجم الرديف لتشكل مجتمعا متماسكا متضامنا نتجت عنه :

- أ- ازدهار العمّال وذويهم بفضل قيمة العمل التي وفّرت لهم حياة أكثر كرامة و لم تتسهم واجبهم تجاه الوطن سواء بالمساهمة في ثورته أو في تعميره بعد الإستقلال .
- ب- التحاق أبناء العمّال بالدراسة إن بالمدارس الحكومية أو الأهلية وساهم ذلك في وبعيهم المبكر بالوطنية والتحرر وقد كان لهذا أثر في التحاق العديد منهم بالثورة
- ج-ازدهار الحياة الإجتماعية بمختلف انشطتها وفعاليتها ومكوّناتها لتخلق مجتمعا مغاريا منسجما تعايش في وئام دائم ولحمة أهله للعب أدوار تاريخية .
- د- تأثّر العمال المهاجرين بالفكر العمّالي والحركة النقابية الناشئة إذ شاركوا في عدة اضرابات ومنها اضراب سنة 1937 الذي سقطت فيه عدة أرواح نتيجة القمع الإستعماري وكان ذلك حافزا للإلتحاق بركاب ثورة التحرير(46)
- هـ - بروز الروح الثورية التي ساهمت في تحرير الوطن قبل الثورة إذ وصل عدد الخلايا التنظيمية السرية 17 خلية 9 منها في الرديف بصفتها بلدة حدودية وذلك قبل الثورة بسنوات . و بعد ذلك تم تشكيل جيش الطالب العربي قمودي, او جيش الحدود المتكوّن من أهل سوف والنامشة والذي ضم 800 مجاهد .
- و- شكّل العمّال برواتبهم الثابتة موردا دائما لدعم الثورة ماليا حتى الإستقلال إذ كانت الإشتراكات تقطع طوعيا بعد تلقي العمال رواتبهم مباشرة .
- ز- استعداد المهاجرين لتبنيّ الثورة وذلك من خلال استقبال كل من القائد بن عمر الجيلاني الذي فرّ من الجيش الفرنسي في 29 أكتوبر 1954 والتحق بالرديف تحضيرا لانضمامه للثورة وهناك أمده المناضلون بمبلغ 65000 فرنك لشراء السلاح قبل ان يعود الى سوف لتجنيد الشباب والتقى القائد حمّه لخضر وخططوا لمعركة حاسي خليفة التي كانت يوم 17 نوفمبر 1954. (47) كما استقبل مهاجرو سوف القائد مصطفى بن بولعيد الذي حلّ بالرديف بتاريخ 05 فيفري 1955 حيث قضى أربعة أيام هناك اتصل فيها بقيادة ما كان يعرف بجيش الحدود بقيادة الطالب العربي و الذي كلّفه بتحضير مؤتمر في الحدود الشرقية لتصحيح قواعد الثورة.(48).
- ح- التحاق شباب الجالية السوفية في الرديف وعموم المناجم بالثورة تباعا.
- ط- أصبحت الرديف قاعدة للثورة ومحطة لوجيستية لها وتأسست بها ثكنة لجيش التحرير بنزلة السوافة وكان مقرها وكالة علي بالسايح وهي منزل كبير تتوسطه ساحة كبيرة محاطة بالغرف من جميع الجهات،وتطورت هذه الثكنة مع تطور الثورة لتحتضن أبناء المهاجرين وترعاهم بالتعليم والتغذية والرعاية الصحية مثل التطعيم ضد الأمراض.
- ي- بروز طبقة متنوّرة من أبناء العمّال تبوّأت المناصب في الإدارة والتعليم بعد الإستقلال . إذ أن العديد من اطارات وادي سوف ومبديعيها ومتفقيها ولدوا ونشأوا نشأتهم الأولى وتلقوا

تعليمهم القاعدي في مدارس الحوض المنجمي ومنها الرديف وذلك بعد التحاق بعضهم بالثورة إذ ساهم بعضهم في تدريس أبناء الجالية بمدرسة جبهة التحرير ومنهم الأستاذان حشاني بن البشير قدارة رشيد الباهي (49).

س- ساهم إكتساب المرأة الجزائرية السوفية لنصيب من التعليم والوعي الوطني في دمج بعض النساء في العمل النضالي وذلك بتعهّد ملابس المجاهدين تنظيفا وحياسة كما كان لبعضهن شرف خياطة الأعلام الوطنية التي كانت ومنذ بداية الثورة محل احتفاء ورفع كما كان للمرأة الفضل في تغيير واقعها لتؤثر في واقع المجتمع بوادي سوف بعد زواجها فيها أو بعد عودتها إثر الإستقلال.

يمكننا القول أن هجرة الجزائريين من أهل سوف الى الحوض المنجمي جنوب غربي تونس , كانت مفيدة للمهاجرين أنفسهم وكذا للجزائر وثورتها التحريرية الكبرى وخاصة في منجم الرديف بصفته الأقرب الى الجزائر والأكثر تعميرا بمهاجري الجزائر من سوف . وإضافة الى أن مناجم الفوسفاط ومنها الرديف كانت قد عاشت وحدة مغاربية شعبية بأتم معنى الكلمة فإن العمال وذويهم تقاسموا العيش في السراء والضراء و شكّلوا موارد بشرية واقتصادية لحركات التحرر في بلدانهم وخاصة الجزائريين منهم كما أسهموا في حركة التنوير والبناء بعد استقلال بلدان المغرب العربي , وهكذا كان يمكن أن تكون جسرا لبناء مغرب موحد .

#### 4- محتشد ملعب كرة القدم بالرديف:

حين اشتد الخلاف بين قادة الثورة ,ولمّا كان الطالب العربي قائد جيش الحدود قد استقبل ثوار تونس من أنصار صالح بن يوسف المؤمن بمواصلة الكفاح المسلّح في إطاره المغاربي مناوئا لسياسة الحبيب بورقيبه الماضية في نهج الإستقلال المرحلي, ومع انقسام جيش الطالب العربي نفسه بعد استقلال تونس الداخلي على اثر اتفاقية 3 جوان 1955 مع فرنسا, تسارعت الأحداث فمنحتت فرنسا تونس استقلالها التام في 20 مارس 1956 بعد استقلال المغرب في 02 مارس من نفس السنة إذ أرادت ضرب حركة التحرر المغاربية بوأد فصيل صالح بن يوسف لإيمانه بالكفاح المغربي المشترك والتفرغ للقضاء على الثورة الجزائرية, وبعد مؤتمر الصومام وقراراته واختلاف الرؤى حولها بين قادة الثورة ومنهم الطالب العربي نفسه, وبعد اختطاف طائرة الزعماء الخمسة واستتباب الأمر لبورقيبة أصبح الطالب العربي يشكل حرجا للقيادة التونسية وقيادة الجبهة على حد سواء ناهيك عن قوات الإحتلال التي لا تزال ترابط في بعض المراكز التونسية وهكذا سارعت السلطات التونسية بمصادرة كل مقرات واملاك جيش الحدود في مراكز المدن والقرى الحدودية وتم تضيق الخناق على الطالب و جيشه الأمر الذي اضطره الى احتجاز معتمد تمغزة الذي لم يُفلح معه الحوار لضمان تموين الجيش من أسواق المنطقة الجنوبية الغربية في تونس (50). وكرد فعل على هذه العملية لم تجد السلطات التونسية الا

اعتقال كل الجزائريين من الذكور الرجال والشباب البالغين في محتشد فضيع تحت شمس حارقة من شهر ماي المحرقة بملعب كرة القدم بمنجم الرديف ..وقد افتقل الرجال وهم نياما واغلبهم كان بملابس خفيفة..ومكث الرجال اياما بينما اطلق سراح الشباب بعد اربعة ايام ..وقد عاشت العوائل الويلات من جزاء الرعب الذي مارسته السلطات التونسية كما عاش المعتقلون فصولا من العذاب في العراء في مكان لا مرافق فيه ولا حتى ماء صالح للشرب .. (51) ..وقدر عرفت الحادثة في الذاكرة الشعبية باسم عام "القول" أي الملعب.

### خاتمة:

لقد شد مهاجرو وادي سوف الرجال الى ديار الهجرة ولكنهم جملوا الوطن في الوجدان فعاشوا حياتهم في المناجم حالمين موقنين بالعودة في كل ما قاموا به من أنشطة سمحت للأجيال المتلاحقة أن تحمل القضية الوطنية حية في الذاكرة حتى كانت فرصة اندلاع الثورة فانخرط العديد من شباب المناجم وخاصة الرديف للالتحاق بركابها والمساهمة فيها فمنهم من لقي ربه شهيدا ومنهم من عاش ونعم بالحرية مع ابناء الوطن. وبعد استشهاد الطالب العربي في جوان 1957 واستقرار قيادة الثورة تهيكلت الهيئات التي تدير شؤون المهاجرين بتأطير من جبهة التحرير الوطني

### الإحالات :

- 1-موسى بن موسى,الحركة الإصلاحية بوادي سوف :نشأتها وتطورها (1900-1939)مذكرة ماجستيرإشراف أحمد صاري ,جامعة منتوري قسنطينة ,سنة 2006, ص.18
- 2- علي غنابزية,مجتمع وادي سوف من الإحتلال الفرنسي إلى الثورة التحريرية,رسالة دكتوراه إشراف بن عمر خروف جامعة الجزائر 2008-2009, ص..290
- 3-نفسه, ص.164.
- 4-ابراهيم مياسي,جهاد الشيخ عبد العزيز الشريف ,مجلة الثقافة ,عدد109, وزارة الثقافة ,الجزائر ,ص..175
- 5- علي غنابزية , المرجع السابق ,ص.ص.310-311.
- 6-إبراهيم مياسي,المرجع السابق ,ص..157
- 7-علي غنابزية ,المرجع السابق, ص.ص. 34-35.
- 8- نفسه ,ص.41.
- 9- عثمان زقب ,وادي سوف :دراسات متنوعة ,علاقات وادي سوف بتونس وليبيا ,جمعية المركز الثقافي بقمار , سنة 2000,ص.75
- 10- نفسه.
- 11- Roger BRUNET , un centre minier de Tunisie: Redeyef, in: Annales de géographie, 1958,T67no. 363, p.432.

- 12- مبروكة رحيلي, التحولات الإقتصادية والاجتماعية في القرى المنجمية خلال الفترة الإستعمارية: مثال قرية الرديف بالجنوب الغربي التونسي (1939-1956) ,رسالة ختم الدروس الجامعية ,إشراف عبد الواحد المكني ,جامعة سفاقص, 2005-2006, ص.4
- R. BRUNET, Op.cit ,p.431.-13
- 14- مبروكة رحيلي , المرجع السابق, ص.5.
- R.BRUNET,Opcit-15
- .Ibid -16
- 17- لقاء مع المغترب في فرنسا عبد الوهاب قعر المثرث (من سكان الرديف قبل إستقلال الجزائر) ,شهادة حية في لقاء معه ببيته في وادي سوف , بتاريخ 20 أكتوبر 2013.
- R. BRUNET, Op.cit ,p.-18 437.
- 19-مبروكة رحيلي ,المرجع السابق 'ص.24.
- 20-نفسه , ص.25
- 21 -لخضر غندير ,مفتش متقاعد للتربية بالوادي ومن قدامي منجم الرديف دخل بعدالاستقلال . ببيته بالوادي يوم 20 جوان 2013
- 22-الطباي حفيظ,القرى الإستعمارية:قرى مناجم قفصة نموذجا ,المجلة المغاربية, مؤسسة التميمي ,العدد 107-108 , جوان 2000,ص.146..
- 23+مبروكة رحيلي 'المرجع السابق'ص..29
- 24- لقاء مع عبد الرزاق قعرالمثرث ,معلم متقاعد بالوادي ومن قدامى منجم الرديف ودخل بعد الإستقلال , يوم 22جوان 2013
- 25- Brunet Roger,Européen et prolétariat urbain dans le sud tunisien,in La Pensée , mai – juin , p.51
- 26- عبد الرزاق قعر المثرث, 'المرجع السابق.
- 27- مبروكة رحيلي المرجع السابق ,ص. 33.
- 28- Hamza salah, Conscience et génèse ouvrière en milieu rural :cas de mineurs du sud de La Tunisie ,Thèse de doctorat , Université de Sorbone ,1970,p.100.
- 29-مبروكة رحيلي 'المرجع السابق'ص.45.
- 30-لخضر غندير , المرجع السابق.
31. لقاء أحمد ازبيدي ببيت نجله الأصغر يوم 20 أفريل 2013
- ' وهو عامل منجمي سابق ومؤسس فرع الكشافة الاسلامية الجزائرية بالرديف 'عاد الى الجزائر غداة الاستقلال
- 32- لقاء مع الأستاذ عبد القادر غريسي بن مسعود , المحامي في مكتبه بالوادي بتاريخ 22 ماي 2013.
- 33- لخضر غندير ' عبد القادر غريسي 'قعرالمثرث عبد الرزاق ' المراجع السابقة .
- 34-لقاء مع الأستاذ عمر لرقط 'مدير مدرسة متقاعد ومن مواليد الرديف في شهادة مكتوبة منه بتاريخ 14 مارس 2012.
- 35-أحمد ازبيدي 'المرجع السابق .

- 36- لخضر غندير ' المرجع السابق .
- 37- عمر لرقط 'المرجع السابق .
- 38- عبد الحميد بسر المحامي والمرّي سابقا 'مجاهد من مواليد الرديف 'في لقاء بمكتبه بتاريخ 28 فيفري 2011.
- 39- لخضر غندير ' المرجع السابق.
- 40- يعني المتل أن الإقتصاد المحلي يرتكز على زراعة النخيل ,والصناعة التقليدية وخاصة النسيجية منها , وزراعة الخضر المروية بألة الخطارة التي تصنع من خشبة نخلة هرمة .
- 41- لقاء مع الشيخ البشير الأحمدبي ببيته بكوينين يوم 16 مارس .2013
- 42- لخضر غندير 'المرجع السابق.
- 43 - .عبد القادر غريسي 'المرجع السابق.
- 44- لخضر غندير , المرجع السابق.
- 45- palmeraias du Souf --Cap.Mariaud ,Tableau de situation d'élevage et des 1921/1930.متحف المجاهد بالوادي .
- 46-تكوّن الفرع النقابي التابع للكنفدرالية للشغل الفرنسية بالرديف في 13 سبتمبر 1937.أنظر مبروكة الرحيلي ' المرجع السابق .
- 47- لقاء مع عبد الرزاق بالعروسي , مناضل ومجاهد مغترب في فرنسا ببيت ابنه بالوادي في 20 أبريل 2012. للمزيد أنظر قصة العودة لحسان الجبلاني أكاديمي في علم الاجتماع من مواليد الرديف .دارهومة 2010.
- 48- نفسه .
- 49- همر لرقط ,المرجع السابق.
- 50- عبد الرزاق بالعروسي ولخضر غندير , المرجعين السابقين
- 51-نفسه